



بحث بعنوان
"أضواء على ضوابط العلاقات الدولية والإنسانية في الأخلاق الإسلامية"

مقدم من

الشيخ إبراهيم خليل عوض الله
الوكيل المساعد لدار الإفتاء الفلسطينية
مفتي محافظة رام الله والبيرة

إلى

المؤتمر الدولي الـ 25 لمسلمي أمريكا اللاتينية ودول البحر الكاريبي

تحت شعار

(أهمية الأخلاق في حياتنا المعاصرة)
المنعقد في مدينة سان باولو - البرازيل

في الفترة من

14-16 شعبان 1432هـ

الموافق 15-17/7/2011م

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص البحث

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، بشيراً ونذيراً، وعلى آله الكرام، وصحبه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين، وبعد؛ فإن هذا البحث - المقدم إلى المؤتمر الدولي الـ 25 لمسلمي أمريكا اللاتينية ودول البحر الكاريبي - يهدف إلى تسليط الضوء على واقع العلاقات الدولية والإنسانية وضوابطها في إطار ما جاءت به الأخلاق الإسلامية، التي عملت على ترسيخ مبدأ نصرة المظلوم، واحترام حياة الإنسان وحفظ كرامته، وبناء العلاقات بين الناس على أساس من فهم الآخر، وصون حقوقه، وحمايته من التعدي والتجاوزات المجحفة.

ومن أبرز الأسباب التي دفعت إلى إعداد هذا البحث؛ أداء واجب الدعوة إلى الإسلام على بصيرة، بهدف إبراز الوجه المشرق للإسلام، وإزاحة الغبش عن عيون الذين يُضللون بالدعاية المغرضة ضد الإسلام، التي تظهره على غير صورته الحقيقية، وتسليط الضوء على جانب مهم في العلاقات بين الناس، وذلك فيما يتعلق بدور الأخلاق الإسلامية في بناء العلاقات الدولية والإنسانية وضبطها وتنظيمها.

ومن الدواعي الرئيسية لإعداد هذا البحث ما يشاهد في كثير من أنحاء العالم من تجاوز للقيم والأخلاق في معاملة المدنيين الآمنين، حيث القتل، وسفك الدماء، وتقييد الحريات، واغتصاب حرائر النساء، وسلب الأموال والممتلكات، والاعتداء على الشيوخ والأطفال دون حسيب أو رقيب، وعلى مرأى من العالم وسمعه، الذي يشاهد أفراد وجماعته ما يحدث عبر الشاشات التي تبث البعيد والقريب من الأحداث التي يندى لها الجبين، ويمقتها كل عزيز كريم، وذلك في بث حي ومباشر، يصل إلى أقصى الدنيا وأدناها.

ومجال هذا البحث واسع، يصعب حصره في وريقات أو سطور، إذ يمكن أن تكتب به كتب ومؤلفات، وعملاً بالقاعدة الفقهية التي تنص على أن ما لا يدرك كله لا يترك جله، يأتي هذا البحث المتواضع ليعرج على غيض من فيض الأخلاق الإسلامية، التي تركت بصمات مضيئة على نطاق العلاقات الدولية والإنسانية في مجالاتها المختلفة، مع التأكيد على أن ما يتضمنه هذا البحث ليس سوى شذرات من قطوف بستان الأخلاق الإسلامية، اختيرت لتبث إشعاعات مضيئة على درب فهم الإسلام الصحيح، وتدبر قيمه وأخلاقه التي تركت بصماتها الواضحة على واقع العلاقات الدولية والإنسانية في عصور الإسلام الزاهرة، فنطقت الأخلاق والقيم بالألفاظ والعبارات الدالة على سموها

من قبل ساسة المسلمين وقادتهم ومفكرتهم وعلمائهم وفقهائهم، الذين سطرت أعمالهم صفحات مشرقة على صعيد التطبيق والتنفيذ، فكانت بهذا أخلاقهم الإسلامية جديرة بأن تبرز، ويشار إليها بالبنان عند الحديث عن مواثيق حقوق الإنسان، أو الاحتفاء بها في المحافل والمنتديات والمؤتمرات وغيرها.

ويأتي هذا البحث تحت عنوان "أضواء على ضوابط العلاقات الدولية والإنسانية في الأخلاق الإسلامية"، تعبيراً عن اختيار عينة معبرة من الأخلاق الإسلامية في مجال تنظيم العلاقات الدولية والإنسانية وضبطها، وذلك من خلال النصوص القولية، والوقائع العملية الواردة بهذا الشأن، ومن الجوانب التي حظيت بقبس من تسليط الضوء في هذا البحث، ما يأتي:

- المساواة بين الناس في الحقوق والواجبات.
 - الأخلاق في مخاطبة قادة الدول الأخرى.
 - الأخلاق في مضامين المعاهدات والمواثيق الدولية.
 - الوفاء بالعهود والمواثيق الدولية.
 - حماية الوفود وطالبي اللجوء.
 - الأخلاق في الحروب وساحات الصراع العسكري.
 - توعّد قتلة الأبرياء، وبيان إثم من يرسي منهج قتلهم.
 - حفظ حقوق المدنيين وأمنهم.
 - حفظ حقوق الأسرى.
 - فهم الآخر ومنع إكراهه على اعتقاد أو تركه.
 - بر غير المحاربين والقسط إليهم.
 - الأخلاق في مرامي غاية دعوة الآخرين إلى الإسلام.
- وخلص هذا البحث إلى أن العلاقات الدولية والإنسانية يمكن أن تضبط في ضوء الأخلاق الإسلامية، على وجه يفشي السلام والود والوثام بين الناس، على مختلف أجناسهم ومواطنهم وألوانهم ولغاتهم ومعتقداتهم.
- واختتم بتقديم بعض التوصيات التي من شأنها التصدي لمحاولة طمس معالم الإسلام وخصائص أخلاقه وثمراتها، إلى جانب نشر الوعي بالإسلام وأخلاقه، وبيان مدى حاجة الإنسانية إليهما في كل العصور والأماكن.

أضواء على ضوابط العلاقات الدولية والإنسانية في الأخلاق الإسلامية

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، بشيراً ونذيراً، وعلى آله الكرام، وصحبه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين، وبعد؛ فإن الأخلاق الإسلامية تتبع من مبادئ الإسلام وتوجيهاته وأحكامه، وتستقى من مصادره المعتمدة شرعاً، ويتمشى شمولها مع شمول الإسلام لكل مناحي الحياة، الذي ختم الله به الأديان، وجعله مهياً للتماشي مع تطورات الحياة، والبقاء صالحاً إلى آخر الزمان. والأصل في الذي يتحلى بالأخلاق الإسلامية أن يبتغي بها وجه الله، حتى يجني ثوابها وينال خيراتها، ويستمر بالتمسك بها في المنشط والمكروه والعسر واليسر، فيما يحب ويكره. والأخلاق تتمتع بأهمية في حياة الأفراد والجماعات، وفي علاقات الناس مع بعضهم بعضاً، وصدق الشاعر، حيث قال:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت *** فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

والنبي الكريم محمد، صلى الله عليه وسلم، بعث ليتمم مكارم الأخلاق، وفي الصحيح عن أبي ذرٍّ، " لَمَّا بَلَغَهُ مَبْعَثُ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ لِأَخِيهِ: ارْكَبْ إِلَى هَذَا الْوَادِي، فَاسْمَعْ مِنْ قَوْلِهِ، فَرَجَعْ، فَقَالَ: رَأَيْتُهُ يَأْمُرُ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ"⁽¹⁾، ويروي أبو هريرة، عنه، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا...".⁽²⁾

ويسعى هذا البحث إلى تسليط الضوء على نماذج مضيئة من النصوص الشرعية والمواقف العملية للسلف الصالح في مجال ضوابط العلاقات الدولية والإنسانية في ضوء الأخلاق الإسلامية المستوحاة من تلك النصوص والمواقف، والتي تعتبر نبراساً للمسلمين في كل زمان ومكان، ينير لهم درب سلوكهم مع الآخرين، حتى يكونوا بحق من المهتدين الأبرار، الذي عرفوا الحق فلزموه، على سنة نبيهم، صلى الله عليه وسلم، حيث أمرهم الله باتباعها واقتفاء أثرها، فقال تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا}.⁽³⁾

وإن المتدبر في واقع الأمم والشعوب في علاقاتها مع بعضها بعضاً، وفيما يدور داخل كياناتها المحلية، يجد فيما يعرضه هذا البحث من إضاءات إجابات عن الأسئلة الاستهجانية التي تدور في خلدته، خلال استعراضه لتفاصيل التجاوزات الأخلاقية على هذا الصعيد،

1 - صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب إسلام أبي ذر الغفاري.

2 - سنن الترمذي، كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها. المستدرک على الصحيحين، ج1، ص43، وقال: هذا حديث صحيح، ولم يخرج في الصحيحين، وهو صحيح على شرط مسلم بن الحجاج.

3 - الأحزاب: 21.

وبالتالي؛ فيؤمل للباحثين عن منهج أخلاقي متكامل يضبط العلاقات الدولية والإنسانية، أن يقودهم هذا البحث إلى أن يجدوا ضالّتهم في الأخلاق الإسلامية الأصيلة النقية من شوائب التعصب والتأويلات ضيقة الأفق، إذ إن الإسلام العظيم بمبادئه وتشريعاته وقيمه وأخلاقه قادر بإذن الله على إنصاف الناس بعدله، وعلى تحقيق السلام والأمن في مجتمعاتهم، وبينهم وبين الآخرين من الأمم والشعوب.

مفهوم الأخلاق

الخلق لغة: الدين والسجية والطبع، وحقيقته أنه لصورة الإنسان الباطنة، وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها، بمنزلة الخلق لصورته الظاهرة، وأوصافها ومعانيها، ولها أوصاف حسنة وقبيحة، والثواب والعقاب يتعلقان بأوصاف الصورة الباطنة أكثر ما يتعلقان بأوصاف الصورة الظاهرة.⁽¹⁾

والخلق: حال للنفس راسخة، تصدر عنها الأفعال من خير أو شر، من غير حاجة إلى فكر وروية.⁽²⁾

والخلق اصطلاحاً: عرفه الغزالي، فقال: هو عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر، من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً سميت تلك الهيئة خلقاً حسناً، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقاً سيئاً.⁽³⁾

أهمية الأخلاق في تنظيم العلاقات الدولية والإنسانية وضبطها

يجدر التنبيه في هذا المقام إلى أن التركيز هنا يكون على الأخلاق في صورتها الإيجابية والمحمودة، مع استبعاد الأخلاق الذميمة، والأخلاق الإسلامية من فصيلة النوع الحميد حسب اعتقاد معتققيها والمتحليين بها، الذين ينظرون إلى أن تؤدي أخلاقهم آثاراً عملية في سلوكهم وواقعهم، وذلك حيث يكون التحلي بها صحيحاً، والعمل بمقتضاها سليماً. وعلى صعيد أهمية الأخلاق في تنظيم العلاقات الدولية والإنسانية وضبطها، فإن العلاقات بين الناس والمجتمعات والدول تحتاج إلى مؤثرات الأخلاق الإيجابية، لإنجاح تنظيمها وضمان الضبط الصادق والصحيح لها، جنباً إلى جنب مع نصوصها القانونية، والمبادئ العامة التي تحكمها.

وتظهر هذه الأهمية بجلاء واضح عند النظر في مواقف التفتت من بنود القوانين والاتفاقات بين الدول والناس، باختلاف مسوغات لهذا التفتت، أو البحث عن مداخل ومبررات

1 - لسان العرب، ابن منظور، ج5، ص 140.
2 - المعجم الوسيط، ص 275.
3 - الغزالي، إحياء علوم الدين، ج3، ص 75-76.

للتهرب من الالتزامات، وإلقاء اللوم والتهم على الأطراف الأخرى، أما حين يحتكم الناس في علاقاتهم الدولية والإنسانية إلى إحياء الأخلاق ومضامينها بدوافع ذاتية وعقائدية، فسيختلف الحال، وستفترق النتائج على أرض الواقع.

الأخلاق الإسلامية في مجال ضبط العلاقات الدولية والإنسانية

تشمل الأخلاق التي يتحلى بها المسلم، وتضبط سلوكه في مجال العلاقات الدولية والإنسانية كثيراً من الجوانب، فهي تكون حاضرة ظاهرة مع كل تعامل، منطلقاً من مبادئ الإسلام وشريعته، ومن أبرز صور الأخلاق الإسلامية ومبادئها على هذا الصعيد، ما يأتي:

التواضع إلى الناس انطلاقاً من مبدأ المساواة بين الناس في الحقوق والواجبات

من سجايا المسلم وحسن أخلاقه، أنه لا يصعر خذه للناس، ولا يتكبر عليهم، ولا يمشي في الأرض مرحاً، بغض النظر عن مستوى علمه وماله ومكانته الاجتماعية والعائلية، عملاً بقوله تعالى: {وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا}.⁽¹⁾

وقوله سبحانه الوارد في ذكر وصايا لقمان الحكيم لابنه وهو يعظه: {وَلَا تَصَعَّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ}.⁽²⁾

والرسول، صلى الله عليه وسلم، يوصي بالتواضع، فعن أبي هريرة، عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: "ما نقصت صدقةً من مالٍ، وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزاً، وما تواضع أحدٌ لله، إلا رفعه الله".⁽³⁾

ومن دوافع المسلم للتواضع، وعدم التعالي على الناس، إيمانه بالمساواة بينه وبينهم في الخلق، فكلهم خلقوا من نفس واحدة، والله تعالى يقول: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}.⁽⁴⁾

فالناس في اعتبارات المسلم ونظره سواسية، لا فرق بين أبيضهم وأسودهم وأحمرهم وعربهم وعجمهم، وبناء على اعتقاد المؤمن بالمساواة بينه وبين الخلق، فإنه يتواضع لهم، ولا يترفع عليهم، ولا يتكبر، وينقاد إلى ميزان العدالة الذي يحكم بينه وبينهم، فعن عائشة، رضي الله

1 - الإسراء: 37.

2 - لقمان: 18.

3 - صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع.

4 - الحجرات: 13.

عنها، أَنَّ قُرَيْشًا أَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ، فَقَالُوا: وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم؟! فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِي عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ، ثُمَّ قَامَ، فَاخْتَطَبَ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبَلَكُمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكَوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَأَيْمُ اللَّهِ؛ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا".⁽¹⁾

ومن التطبيقات العملية من سيرة السلف الصالح في هذا المجال، أن عمرو ابن العاص، رضي الله عنه، عندما كان والياً على مصر في خلافة أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب، رضي الله عنه، اشترك ابن له مع غلام من الأقباط في سباق للخيل، فضرب ابن الأمير الغلام القبطي اعتماداً على سلطان أبيه، وأن الآخر لا يمكنه الانتقام منه؛ فقام والد الغلام القبطي المضروب بالسفر بصحبة ابنه إلى المدينة المنورة، فلما أتى أمير المؤمنين عمر، رضي الله عنه، بيّن له ما وقع، فكتب أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص أن يحضر إلى المدينة المنورة بصحبة ابنه، فلما حضر الجميع عند أمير المؤمنين عمر، ناول عمر الغلام القبطي سوطاً، وأمره أن يقتص لنفسه من ابن عمرو بن العاص، فضربه حتى رأى أنه قد استوفى حقه، وشفى ما في نفسه. ثم قال له أمير المؤمنين: لو ضربت عمرو بن العاص ما منعتك؛ لأن الغلام إنما ضربك لسلطان أبيه، ثم التفت إلى عمرو بن العاص، قائلاً: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟"⁽²⁾

يُحْتَرَمُ الْمُسْلِمُ النَّاسَ، وَيُحْفَظُ كِرَامَتَهُمْ

يُحْتَرَمُ الْمُسْلِمُ النَّاسَ، وَيُحْفَظُ كِرَامَتَهُمْ، انطلافاً من تكريم الله لهم، فالله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ...﴾⁽³⁾، ولم يقل سبحانه كرمنا صنفاً من الناس دون صنف، وإنما أصل التكريم يشمل الناس جميعاً لمجرد أنهم من أبناء آدم، والله فاضل بين الناس في مستوى التكريم، بناء على درجة التقوى لديهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ﴾⁽⁴⁾، وهو معيار رباني، يعود فضله على الناس في دنياهم وآخرتهم.

ويتحلى المسلم بخلق احترام الناس وحفظ كرامتهم في حالات السلم والحرب، وفي حال الحياة وبعد الممات، فهذا خليفة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، الأول، أبو بكر

1 - صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار.

2 - عن موقع إسلام ويب، مركز الفتوى، 15 جمادى الآخر 1424 - 14-8-2003 رقم الفتوى: 36194.

3 - الإسراء: 70.

4 - الحجرات: 13.

الصديق، يوصي يزيد بن أبي سفيان، لما أرسله إلى الشام، قائلاً: "إنك ستجد قوماً حبسوا أنفسهم لله، فذرهم وما حبسوا أنفسهم له؛ يعني الرهبان... ثم قال له: إني موصيك بعشر؛ لا تغدر، ولا تمثل، ولا تقتل هَرِمًا، ولا امرأة، ولا وليدًا، ولا تَعْقِرَنَّ شاة، ولا بعيرًا، إلا ما أكلتم، ولا تحرقن نخلًا، ولا تخرّبن عامرًا، ولا تغلّ، ولا تبخس".⁽¹⁾

ويمتنع المسلم عن التمثيل بقتلى الأعداء، فكان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، يوصي جيوشه: "أن لا يمثلوا عند القدرة، وأن لا يسرفوا عند القدرة والغلبة، وأن لا يقتلوا هَرِمًا، ولا امرأة، ولا وليدًا، وأنهم لا يختلسوا، ولا يسرقوا من الغنائم، حين تتاح لهم، وتكون بين أيديهم، وأن ينزهوا جهادهم عن عرض الدنيا".⁽²⁾

ومن أخلاق المسلم في هذا الجانب، أنه يراعي حفظ كرامة الإنسان بعد موته، ولو كانا معادياً للمسلمين في حياته، أو قتل في معركة معهم، فلا يمثل في جثته، ويوفر لها سبيل الدفن المناسب، وقد أمر الرسول، صلى الله عليه وسلم، بدفن قتلى المشركين يوم بدر في حفرة كبيرة، أطلق عليها القليب،⁽³⁾ وعن ابن عُمَرَ، رَفَعَ "...إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَامَ عَلَى الْقَلْبِ، وَفِيهِ قَتْلَى بَدْرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ".⁽⁴⁾

الرحمة بالناس وإنصافهم

يرحم المسلم الخلق تأسياً برحمته، صلى الله عليه وسلم، العالمين، الذي حرص على الأمر بالتراحم بين الناس، فعن عبد الله بن عمرو، يرفعه إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: "الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ، يَرْحَمَكُم مِّنْ فِي السَّمَاءِ...".⁽⁵⁾ وينتهي المسلم في المقابل عن تجاوز الرحمة في العلاقة مع الناس، عملاً بتحذير الرسول، صلى الله عليه وسلم: "لَا يَرْحَمُ اللَّهُ مَنْ لَا يَرْحَمُ النَّاسَ".⁽⁶⁾ ومعلوم أن لفظ الناس عام، يشمل جنس الناس؛ مسلمهم وغيره، وكذلك بالنسبة إلى لفظ أهل الأرض، فالرحمة مطلوبة من الناس نحو بعضهم بعضاً، بغض النظر عن الأسماء والأجناس والألوان واللغات والمعتقدات، حتى إن الإسلام يشيد بالرحمة تجاه الحيوان، فعن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: "دَخَلَتْ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ، رَبَطَتْهَا، فَلَمْ تُطْعَمْهَا، وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلْ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ".⁽⁷⁾ والمسلم يتخلق بخلق الرحمة في علاقاته الدولية والإنسانية، من منطلق هذه التوجيهات.

1 - العقد الفريد، ج1، ص118.
2 - الإمامة والسياسة، لابن قتيبة، ص40.
3 - ابن هشام، غزوة بدر الكبرى، ج3، ص187.
4 - صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل.
5 - سنن الترمذي، كتاب البر والصلة عن رسول الله، باب ما جاء في رحمة الناس، المستدرک علی الصحیحین، ج4، ص175.
6 - صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تبارك وتعالى: {قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن}.
7 - صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب خمس من الدواب فواسق يقتلن في الحرم.

وفيما يتعلق بخلق إنصاف غير المسلم في ظل الأخلاق الإسلامية، روي أن أمير المؤمنين عمر، رضي الله عنه، مر بشيخ من أهل الذمة، يسأل على أبواب الناس، فقال: "ما أنصفناك أن كنا أخذنا منك الجزية في شببيتك، ثم ضيعناك في كبرك. ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه".⁽¹⁾

الأخلاق في مخاطبة قادة الدول الأخرى

يراعي المسلم حال من يخاطبه ويحدثه ومكانته، فيعرف للناس قدرهم، وينزلهم منازلهم، وقد تضمنت رسائل الرسول، صلى الله عليه وسلم، إلى زعماء الدول وقادتها إحياءات أخلاقية، من هذا القبيل، منها:

- الملاطفة في الخطاب، فكانت تلك الرسائل تفتتح بمخاطبة المرسل إليه بأحب ألقابه، وما اشتهر به من وصف حسن، ومن تلك النماذج، قوله: (إلى النجاشي ملك الحبشة، إلى هرقل عظيم الروم، إلى كسرى ملك فارس).

بل إن من التوجيهات الدعوية الربانية ما يدل على مراعاة هذا الجانب، فانه أمر موسى وهارون أن يتلظفا في مخاطبة فرعون ودعوته، وهو على جانب فظيع وصعب من الكفر والعناد والطغيان، فخاطبهما الله قائلاً: {اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ}.⁽²⁾

ويراعي المسلم أن يبلغ دعوته بعبارات قصيرة دالة على المراد، دون التعرض إلى تجريح المخاطب، مقتفياً منهج نبيه الكريم، محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم، الذي أثنى الله على رفقته بالناس الذين يدعوهم، ورقته في مخاطبتهم ومعاملتهم، فقال تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}.⁽³⁾

وكان، عليه الصلاة والسلام، مثلاً في حسن اختيار الأسلوب الخُلقي في معالجة الأمور، ومعاملة الناس، وبخاصة حين يقع بين يديه عزيز قوم من الأعداء، فيلاطفه ويعرف له قدره، مما يترك أثراً طيبة لديه ومن يتبعه من قومه، ومن شواهد هذا السلوك الخُلقي، ما وقع منه، صلى الله عليه وسلم، مع كل من ثمامة بن أثال الحنفي، وسفانة بنت حاتم الطائي وأخيها عدي، وفي المثالين تجلت الملاطفة، وحسن التعامل مع غير المسلمين في أوضح صورها، فقد بعث النبي، صلى الله عليه وسلم، خيلاً قَيْلَ نَجْدٍ، فَجَاءَتْ بِرَجُلٍ مِّنْ بَنِي حَيْفَةَ، يُقَالُ لَهُ ثُمَامَةُ ابْنِ أَثَالٍ، فَرَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ مِّنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

1 - أحكام أهل الذمة، ج1، ص144.

2 - طه: 44-43.

3 - آل عمران: 159.

وسلم، فقال: ما عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي خيرٌ يا محمد، إن تقتلني؛ تقتل ذاً دم، وإن تتعم؛ تتعم على شاكِرٍ، وإن كنت تريدُ المال؛ فسَلْ منه ما شئتَ، فتركَ حتى كان الغدُ، ثم قال له: ما عندك يا ثمامة؟ قال: ما قلت لك، إن تتعم؛ تتعم على شاكِرٍ، فتركهُ حتى كان بعدَ الغدِ، فقال: ما عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي ما قلت لك، فقال: أطلقوا ثمامة، فأنطلقَ إلى نخلِ قريبٍ من المسجدِ، فاغتسلَ ثم دخلَ المسجدَ، فقال: أشهدُ أن لا إلهَ إلا الله، وأشهدُ أن محمداً رسولَ الله، يا محمد؛ والله ما كان على الأرضِ وجةٌ أبغضَ إليَّ من وجهك، فقد أصبحَ وجهك أحبَّ الوجوهِ إليَّ، والله ما كان من دينٍ أبغضَ إليَّ من دينك، فأصبحَ دينك أحبَّ الدينِ إليَّ، والله ما كان من بلدٍ أبغضَ إليَّ من بلدك، فأصبحَ بلدك أحبَّ البلادِ إليَّ، وإن خيلك أخذتني، وأنا أريدُ العُمرةَ، فمأذا ترى؟ فبشَّره رسولُ الله، صلى الله عليه وسلم، وأمره أن يعتمرَ، فلما قدمَ مكةَ، قال له قائلٌ: صبوتَ، قال: لا؛ ولكن أسلمتُ مع محمَّدٍ رسولِ الله، صلى الله عليه وسلم، ولا والله لا يأتیکم من اليمامةِ حبةٌ حنطةٍ حتى يَأذنَ فيها النبي، صلى الله عليه وسلم".^(*)

أما قصته مع عدي بن حاتم الطائي، وأخته سفانة، ابني من اشتهر بالكرم والجود، حتى صار يعرف باسمه، فتأتي هذه القصة لتعبر عن حسن الخلق في معاملة الآخرين، حتى وهم أسرى، وعلى غير دين الإسلام، فقد كان عدي يعادي النبي، صلى الله عليه وسلم، فبعث النبي، صلى الله عليه وسلم، علياً إلى طي، فهرب عدي بأهله وولده، ولحق بالشام، وخلف أخته سفانة، فأسرتها خيل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فلما أتى بها إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، قالت: يا محمد، هلك الوالد، وغاب الرافد، فإن رأيت أن تخلي عني، ولا تشمت بي أحياء العرب، فإن أبي كان سيد قوم، يفك العاني، ويقتل الجاني، ويحفظ الجار، ويحمي الذمار، ويفرج عن المكروب، ويطعم الطعام، ويفشي السلام، ويحمل الكل، ويعين على نوائب الدهر، وما أتاه أحد في حاجة فرده خائباً، أنا بنت حاتم الطائي. فقال لها النبي، صلى الله عليه وسلم: يا جارية، هذه صفات المؤمنين حقاً، لو كان أبوك مسلماً لترحمنا عليه، خلوا عنها، فإن أباهما كان يحب مكارم الأخلاق. وقال فيها: ارحموا عزيزاً ذل، وغنياً افتقر، وعالماً ضاع بين جهال. فأطلقها ومنَّ عليها. فاستأذنته في الدعاء له، فأذن لها، وقال لأصحابه: اسمعوا وعوا. فقالت: أصاب الله ببرك موقعه، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة، ولا سلب نعمة عن كريم قوم، إلا وجعلك سبباً في ردها عليه.

فلما أطلقها، صلى الله عليه وسلم، رجعت إلى قومها، فأنت أخاها عدياً، وهو بدومة الجندل، فقالت له: يا أخي إئت هذا الرجل، قبل أن تعلقك حباله، فإني قد رأيت هدياً، ورأياً، سيغلب أهل الغلبة، رأيت خصالاً تعجبني، رأيتهم يحب الفقير، ويفك الأسير، ويرحم الصغير،

* صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب وفد بني حنيفة وحديث ثمامة بن أثال.

ويعرف قدر الكبير، وما رأيت أجود، ولا أكرم منه، صلى الله عليه وسلم، وإنني أرى أن تلحق به، فإن يك نبياً، فللسابق فضله، وإن يك ملكاً، فلن يذل في عز اليمن.

فقدم عدي إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، فألقى له وسادة محشوة ليفاً، وجلس النبي، صلى الله عليه وسلم، على الأرض، فأسلم عدي بن حاتم، وأسلمت أخته سفانة بنت حاتم، المتقدم ذكرها، وكانت من أجود نساء العرب، وكان أبوها يعطيها الضريبة من إبله فتهبها، وتعطيها الناس، فقال لها أبوها: يا بنية؛ إن الكريمين إذا اجتمعا في المال، أتلفاه، فإما أن أعطي وتمسكي، وأما أن أمسك وتعطي، فإنه لا يبقى على هذا شيء. فقالت له: منك تعلمت مكارم الأخلاق⁽¹⁾.

الأخلاق في مضامين المعاهدات والمواثيق الدولية

ومن التطبيقات العملية التي ترد في سياق ضبط الأخلاق الإسلامية للعلاقات الدولية والإنسانية، العمل المشهور الذي قام به الخليفة عمر بن الخطاب عند كنيسة القيامة لما حان موعد الصلاة، حينما طلب منه البطريك أن يؤديها حيث كان، فاعتذر عمر، كي لا تكون صلاته هناك سنة لمن يجيء بعده. ولهذا اختار مكاناً آخر إلى الجنوب، وصلى هناك⁽²⁾، ويصف ميخائيل مكسي في كتابه "القدس عبر التاريخ" كيف فتح الخليفة مدينة القدس دون أن يتم تدمير أي شيء فيها، وتسلم مفاتيحها من البطريك صفرنيوس في حفل كبير، ثم زار كنيسة القيامة، وعقد العهدة العمرية مع أهل بيت المقدس، أعطاهم فيها الأمان على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم، وأن لا تهدم كنائسهم، ولا تسكن، ولا ينتقص منها، ولا من حيزها، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، وأتاح المجال لمن أحب منهم اللحاق بنفسه وماله بالروم، أن يلحق بهم، وهو آمن على نفسه، وصلبيه وبيعته، حتى يبلغ مأمنه.

وعلى غرار العهدة العمرية، تأتي المعاهدة التي عقدها أبو عبيدة مع أهل بعلبك، والتي جاء فيها: "هذا كتاب أمان لأهل بعلبك، رومها وفرسها وعربها، على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ودورهم، داخل المدينة وخارجها، وعلى أرحامهم.. من أسلم فله ما لنا، وعليه ما علينا، ولتجارهم أن يسافروا إلى حيث أرادوا من البلاد التي صالحنا عليها، وعلى من أقام منهم الجزية والخراج.

¹ - المستطرف في كل فن مستظرف، ج1، ص367-368.
² - تاريخ القدس منذ الفتح العربي، الدكتور أحمد صدقي الدجاني.

وكتب حبيب بن مسلمة في معاهدة الصلح مع أهل ديبيل: "هذا كتاب من حبيب ابن مسلمة لنصارى أهل ديبيل ومجوسها ويهودها، شاهدهم وغائبهم؛ أني أمنتكم على أنفسكم وأموالكم، وكنائسكم وبيعكم، وسور مدينتكم، فأنتم آمنون، وعلينا الوفاء لكم بالعهد، ما وفيتم وأديتم الجزية والخراج".⁽¹⁾

أخلاق المسلم تقتضيه الوفاء بالعهد والمواثيق الدولية

إذ الأخلاق الإسلامية توجب الوفاء بالعهد والمواثيق، عملاً بالهدي القرآني والنبوي، ففي فاتحة سورة المائدة يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ...﴾⁽²⁾، ويقول سبحانه: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾⁽³⁾ {... وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا}.⁽⁴⁾

ويحذر الرسول، صلى الله عليه وسلم، من غدر المعاهد، فيقول: "لِكُلِّ غَادِرٍ لِيَوْمٍ يُنْصَبُ بِغَدْرَتِهِ"⁽⁵⁾، وفي رواية أخرى، يقول: "لِكُلِّ غَادِرٍ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ يُعْرَفُ بِهِ".⁽⁶⁾ وفي رواية صحيحة أخرى، يقول: "إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُرْفَعُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِيَوْمٍ، فَقِيلَ: هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ".⁽⁷⁾

وعن عبد الله بن عمرو، رضي الله عنهما، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: "مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا؛ لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوَجَّدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا".⁽⁸⁾ ومما يؤثر عن صحابة الرسول، صلى الله عليه وسلم، في مناهضة الغدر وشجبه ومخاصمة مقترفيه، قول ابن عباس، رضي الله عنهما: "وَلَا خَيْرَ قَوْمٍ بِالْعَهْدِ"⁽⁹⁾، إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْعَدُوَّ.⁽¹⁰⁾

ويروى عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أنه بلغه أن بعض المجاهدين قال لمحارب من الفرس: " لا تخف. ثم قتله، فكتب، رضي الله عنه، إلى قائد الجيش: "إِنَّهُ بَلَّغَنِي أَنَّ رَجَالًا مِنْكُمْ يَطْلُبُونَ الْعُلْجَ، حَتَّى إِذَا أَسْنَدَ فِي الْجَبَلِ وَامْتَنَعَ، قَالَ رَجُلٌ مَطْرَسٌ: يَقُولُ: لَا تَخَفْ، فَإِذَا أَدْرَكَهُ قَتَلَهُ، وَإِنِّي، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا أَعْلَمُ مَكَانَ وَاحِدٍ فَعَلَ ذَلِكَ إِلَّا ضَرَبْتُ عُنُقَهُ".⁽¹¹⁾

1 - المعاهدات في شريعة الإسلام للمودودي: ص 216 - 217.

2 - المائدة: 1.

3 - النحل: 91.

4 - الإسراء: 34.

5 - صحيح البخاري، كتاب الجزية، باب إنم الغادر للبر والفاجر.

6 - صحيح البخاري، كتاب الحيل، باب إذا غصبَ جاريةً فزعمَ أنها ماتت ففضيَ بيمينه الجارية الميئة ثم وجدها صاحبها فهي له ويردُ القيمة ولا تكون القيمة ثمناً.

7 - صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب تحريم الغدر.

8 - صحيح البخاري، كتاب الجزية، باب إنم من قتل معاهداً بغير جرم.

9 - معنى ختر: غدر، ومنه قوله تعالى: " وما يجحد بآياتنا إلا كل خنار كفور " أي: غدر، " قوم بالعهد " أي: ينقضه خديعة رجاء الغلبة.

10 - رواه مالك، في الموطأ، باب ما جاء في الغلول.

11 - موطأ مالك، كتاب الجهاد، باب ما جاء في الوفاء بالأمان.

وعن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: "من أمن رجلاً على دمه فقتله، فإنه يحمل لواء غدْرِ يوم القيامة".⁽¹⁾

وفي رواية أخرى، أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: "إذا أمن الرجل الرجل على نفسه، ثم قتله، فأنا بريء من القاتل، وإن كان المقتول كافراً".⁽²⁾

حماية الوفود وطالبي اللجوء

ومن الأخلاق الإسلامية السمحة، إعطاء الأمان للرسول ومندوبي الدول، وطالبي اللجوء السياسي، فذلك أمر شرعه القرآن الكريم، إذ قال تعالى: {وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ}.⁽³⁾

الأخلاق في الحروب وساحات الصراع العسكري ومع المخالفين في العقيدة والدين

وكان أمراء المسلمين يوصون قادة جيوشهم وجندهم بأن لا يعتدوا، نبراسهم في هذا التوجيهات القرآنية، التي منها قوله تعالى: {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}⁽⁴⁾، فالقتال يكون للمعتدي الذي يبدأ المسلمين بالقتال، مقروناً بالنهي عن التعدي والتجاوز، المؤكد ببيان أن الله لا يحب المعتدين.

وكان فيما قاله أبو بكر، رضي الله عنه، لخالد بن الوليد حين وجهه لقتال أهل الردة "... واقبل من الناس علانيتهم، وكلهم إلى الله في سرائرهم ...".⁽⁵⁾

وفي مجال القتال والخصام أمر الله بقتال المقاتلين المعتدين، ومنع الاعتداء على غيرهم، فقال تعالى: {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}⁽⁶⁾، ويرفع الله عن المسلمين الحرج من مسالمة المسالمين من غيرهم، بل يأمر ببرهم، والعدل إليهم، يقول تعالى: {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}⁽⁷⁾، والبر معناه عام يشمل كل خلق حسن، وخص الله القسط بالذكر إلى جانب البر في هذه الآية الكريمة، وهي تحت على فعلهما لمن لم يكن معادياً للمسلمين منهم، بل حفزت الآية الكريمة على التشبث بالقسط من خلال الأمر به مقروناً ببيان حب الله للمقسطين، فكفر الكافر لا يمنع من العدل له، وإن لم تكن راضين عن مناهجه وأفكاره، فالله تعالى يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ

1 - سنن ابن ماجه، كتاب الديات، باب من أمن رجلاً على دمه فقتله.

2 - سنن البيهقي الكبرى، ج9، ص142.

3 - التوبة: 6.

4 - البقرة: 190.

5 - العقد الفريد، ج1، ص118.

6 - البقرة: 190.

7 - الممتحنة: 8.

بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ⁽¹⁾، حتى لو كان الآخر معتدياً فإن اعتدائه لا يبرر تعدي الحق في التعامل معه، والله تعالى يقول: {...وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا⁽²⁾}.}

فلا يجوز قتل معاهد بغير حق، يقول النبي، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوْجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا"⁽³⁾، ويشمل ذلك منع الاعتداء على معاهد، أو من له هدنة، أو أمان عند المسلمين.⁽⁴⁾

ومن الشواهد الرائعة على عدل المسلمين مع خصومهم، ما حصل مع الخليفة علي ابن أبي طالب، رضي الله عنه، بشأن درعه التي فقدتها ثم وجدها عند يهودي، فاحتكما إلى شريح القاضي، فحكم بها لليهودي، فأسلم لليهودي، وقال: "أما إني أشهد أن هذه أحكام أنبياء! أمير المؤمنين يدينني إلى قاضيه، فيقضي لي عليه! أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، الدرع درعك يا أمير المؤمنين، اتبعت الجيش وأنت منطلق من صفين، فخرجت من بعيرك الأورق". فقال علي كرم الله وجهه: أما إذ أسلمت فهي لك.⁽⁵⁾

ولما رأى عمر بن الخطاب شيخاً كبيراً من أهل الذمة يسأل الناس، قال: (ما أنصفناك إن أكلنا شبيبته، ثم نأخذ منك الجزية، ثم كتب إلى عماله أن لا يأخذوا الجزية من شيخ كبير).⁽⁶⁾ والله أباح للمسلمين أن يأكلوا من طعام أهل الكتاب، فقال تعالى: {الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلٌّ لَهُمْ...}⁽⁷⁾ وهذه الإباحة مقيدة بالتزام الأحكام الشرعية الخاصة بالمطعمومات والمشروبات، فلا يحل لنا أن نأكل منهم الخنزير، ولا الميتة، ولا شرب الخمر. فمن ثبت أنه لا يذبح، وإنما يصعق المواشي والدواجن والطيور التي يباح أكلها أصلاً، فإن ذبائحه التي تذبح بهذه الطريقة يصبح حرام أكلها لهذا السبب، وفي إباحة طعام أهل الكتاب إشارة دالة، حتى لا يفهم أحد أن هناك حظر خاص بالطعام بسبب أنه من أهل الكتاب، فقد أكد الله على رفع هذا الحظر بهذا الحكم الذي تضمنته الآية الكريمة.

وأباح الله للمسلم الزواج من نساء أهل الكتاب ضمن الحدود التي فرضها للبيوت المسلمة، والمعاشرة الزوجية بين الأزواج المسلمين، فقال تعالى: {...وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ

1 - المائدة: 8.

2 - المائدة: 2.

3 - صحيح البخاري، كتاب الجزية، باب إثم من قتل معاهداً بغير جرم.

4 - فتح الباري، ج 12.

5 - البداية والنهاية، ج 8.

6 - كتاب الخراج، لأبي يوسف، ص 150-151.

7 - المائدة: 5.

مُسَافِحِينَ وَلَا مَتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ⁽¹⁾.

ولا بد للحديث عن العلاقة بين المسلمين وغيرهم من أن ينطلق من الموضوعية والإنصاف والوعي، فالإسلام يمقت التعصب الأعمى، لأنه يدرك خطورة عواقبه، عدا عن كونه أسلوباً فاشلاً، لا يجلب للمسلمين خيراً.

ومن الضوابط الأخلاقية للعلاقة التي يقيمها المسلم مع غيره في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، الامتناع عن السب والشتم لمعتقدات المخالفين، لقوله تعالى: {وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ⁽²⁾، وعن أبي هريرة، قال: "قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ ادْعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ! قَالَ: إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لِعَانًا، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً"⁽³⁾.

واستخدام الأساليب الاستفزازية تسيء لمستخدمها أكثر مما تفيده في معظم الأحيان والظروف، لهذا علل الله النهي عن سب معتقدات غير المسلمين حتى لا يستندرجون لممارسة نفس الأسلوب مع معتقدات المسلمين.

وأمر الله بملاطفة الوالدين المشركين، حتى وهما يمارسان الضغوط على ابنهما لرده عن دين الإسلام، فقال تعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهِدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ⁽⁴⁾، بل أمر الله بحسن صحبتها وهما على ذلك، فقال تعالى: {وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ⁽⁵⁾.

صون الدماء البريئة، وإثم من يرسي منهج قتل الأبرياء

يحرص المسلم بدافع من دينه وقيمه على صون دماء الناس وحمائيتها من الإراقة، فلا يزهق نفساً بريئة، وهو يؤمن أن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: "مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا"⁽⁶⁾.

1 - المائدة: 5.

2 - الأنعام: 108.

3 - صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها.

4 - العنكبوت: 8.

5 - لقمان: 15.

6 - صحيح البخاري، كتاب الجزية، باب إثم من قتل معاهداً بغير جرم.

ورود في الحديث الصحيح قول النبي، صلى الله عليه وسلم: "كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ؛ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعَرْضُهُ". (1)

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، يقرر مبدأ لزوم تجنب الاعتداء على الأرواح البريئة، بغض النظر عن جنسها ولونها ونوعها؛ سواء أكان أصحابها مسلمين أم غير مسلمين، صغاراً أم كباراً، ذكوراً أم إناثاً، فالنفس البريئة محترمة الروح، وإزهاق الأرواح البريئة، من كبار الذنوب والخطايا، وقد توعد الله ورسوله مرتكب جريمة هذا الإزهاق الآثم، فعن ابن عمر، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: "لَا يَزَالُ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِْبْ دَمًا حَرَامًا". (2)

وأخبر، صلى الله عليه وسلم، عن فظاعة استباحة الدماء البريئة، فبين أن أول القضايا العالقة التي يبيت فيها يوم القيامة، تلك التي تتعلق بالدماء، فعن عبد الله، قال: قال النبي، صلى الله عليه وسلم: "أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فِي الدَّمَاءِ". (3)

وجاء تأكيد تحريم السلوك العدوانى الذي يمس الدماء والأموال والأعراض، في خطبة الوداع التي خطبها الرسول، صلى الله عليه وسلم، في حجه، سنة عشر هجرية، فعن أبي بكر، رضي الله عنه، قال: خَطَبَنَا النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَوْمَ النَّحْرِ، قَالَ: أَتَدْرُونَ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟ قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيَسْمِيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، قَالَ: أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟ قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟ قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيَسْمِيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، فَقَالَ: أَلَيْسَ ذُو الْحَجَّةِ؟ قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟ قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيَسْمِيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، قَالَ: أَلَيْسَتْ بِالْبَلَدَةِ الْحَرَامِ؟ قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ؛ كَحَرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، إِلَى يَوْمٍ تَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ، أَلَا هَلْ بَلَغْتُ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: اللَّهُمَّ اشْهَدْ، فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فَرُبَّ مُبَلِّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ، فَلَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ". (4)

وعلى منهج حصول صاحب السنة الحسنة أجر من ينهج دربه، قال النبي، صلى الله عليه وسلم: "لَا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا؛ إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا، لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ

1 - صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله.

2 - صحيح البخاري، كتاب الديات، باب قول الله تعالى: {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ}.

3 - صحيح البخاري، كتاب الديات، باب قول الله تعالى: {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ}.

4 - صحيح البخاري، كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى.

الْقَتْلَ".⁽¹⁾ ويلحق الإثم بناء على هذا بالذي يشجع القتل الآثم، أو يفعله أو يساعد عليه، بصفته مرسياً لمنهج خاطئ استبيحت بموجبه حرمان، أمر الله بحفظها وصونها.

والله تعالى يشنع جريمة القتل، ويتوعد مقترفها، مقابل الثناء على من يحرص على استبقاء الحياة لصاحبها، فيقول سبحانه وتعالى: {مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ} ⁽²⁾

حفظ حقوق الأسرى

تحرص الأخلاق الإسلامية التي يتحلى بها المسلم، فيما يتعلق بمعاملة أسرى الحروب، على حفظ حقوق الأسرى ورعايتهم، فقد أثنى القرآن الكريم على الذين يقدمون العون الغذائي للأسرى، الذين يقعون بين أيديهم من أعدائهم، فقال تعالى: {وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا} ⁽³⁾

ومنع الإسلام الإجهاز على أسير جريح، وكان من وصايا الإمام علي بن أبي طالب لجنده "لا تتمموا جريحاً، ولا تقتلوا مدبراً، ومن أغلق بابه، وألقى سلاحه؛ فهو آمن". ⁽⁴⁾

حفظ حقوق المدنيين وأمنهم

يجد المسلم بمقتضى تعاليم دينه ومبادئه ما يدفعه إلى أن يكون متحلياً بالحرص على حماية المدنيين؛ على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم وكرامتهم، في حالتهم السلم والحرب، وذلك بغض النظر عن معتقداتهم وأجناسهم وألوانهم ولغاتهم.

فهم الآخر ومنع إكراهه على اعتقاد أو تركه

المسلم يحافظ على الالتزام بدينه وعقيدته وأخلاقه، في الوقت الذي يدرك فيه أن الإسلام يمنع إكراه الناس اعتناقه، وأنه يترك لهم حرية اختيار عقائدهم، فقال تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}. ⁽⁵⁾

وقال للكافرين لكم دينكم ولي دين، مما يستدعي فهم الآخر المغاير للمسلم في معتقده أو منهجه ورأيه، وينسجم هذا مع ما يتردد في أوساطنا المعاصرة من شعار فهم الآخر أو تقبله، وهذا الشعار لا يعني بالضرورة أن ينسلخ الفاهم من معتقده الشخصية، أو مواقفه

1 - صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم وذريته.

2 - المائدة: 32.

3 - الإنسان: 8.

4 - فتح الباري، ج13، ص57.

5 - البقرة: 256.

وأفكاره، وإنما يتطلب استيعاب أمر واقع، مفاده أن الناس يمكن أن تتعدد وجهات نظرهم، وتختلف أفكارهم، وبما أن هؤلاء المختلفين يعيشون في محيط واحد، وعالم واحد، فاختلفاتهم أمر وارد، فالله سبحانه وتعالى لم يخلق الناس جميعاً على هيئة عقلية وجسمية واحدة، وإنما فيهم الذكر والأنثى، والعالم والجاهل، والجميل والقبيح، والقوي والضعيف... إلخ، مما يعني توفر إمكانية الاختلاف بينهم.

وقد تطرق الإسلام إلى فهم الآخر من خلال الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، حيث يقول تعالى: {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ⁽¹⁾، فهذا توجيه واضح الدلالة على فهم الآخر، فالآية تأمر المسلم بأن يختار الملاطفة وحسن التعبير، والاحترام عند مجادلة أهل الكتاب، وهذا التوجيه القرآني المتضمن الحث على المجادلة بالتي هي أحسن، لم يغفل حقيقة الاختلاف الثابت بين المسلم وغيره من أهل الكتاب، سواء في بعض العقائد أم القيم أم العبادات أم المواقف... إلخ، فالملاطفة في الحوار تعبر عن أدب المسلم، وتبرز سماحة الإسلام.

لكن فهم الآخر ليس أمراً انتقائياً، يطلب في مواقف، ويتجاهل في أخرى، ينتقد به قوم، ويعفى من ضوابطه آخرون، فمتلماً يطلب الفهم من طرف لآخر، فإنه يطلب كذلك من الآخرين تجاه هذا الطرف، فكما أن المسلم مطالب بفهم غير المسلم في إطار ضوابط الشرع، فإن فهم الآخر مطلوب بين المسلمين أنفسهم، على اختلاف اجتهاداتهم وتنظيماتهم وتصوراتهم ومذاهبهم، وكذلك غير المسلم مطالب بفهم المسلم، يتقبله بإسلامه الذي يدين به، دون شروط.

الصبر على ما يجده المرء من معاناة خلال تعامله مع المخالفين

يجد المسلم في دينه ما يسليه، وهو يواجه مخالفيه، من خلال خطابه للنبي، صلى الله عليه وسلم، في قوله تعالى: {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا⁽²⁾.

وبين الله للمؤمنين سبيلهم في الدعوة في ظل الاختلاف الواقع مع مخالفهم، فقال تعالى: {فَلِذَلِكَ فَادُعْ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ⁽³⁾.

1 - العنكبوت: 46.

2 - الكهف: 6.

3 - الشورى: 15.

ورغم الاختلاف بين الناس؛ فإن التعارف بينهم مطلوب، يقول تعالى: رَيَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ⁽¹⁾.

من هنا يكون المطلوب من المسلم الدعوة للخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أما النتائج فنترك لله، يقول تعالى: ﴿فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ * إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ * إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾⁽²⁾.

وينسجم مع هذا المبدأ الموقف الشرعي من دور العبادة الخاصة بغير المسلمين، فالإسلام يأمر بحمايتها والحفاظ عليها، ويجعل ذلك هدفاً نبيلاً للقتال المشروع، فالله يبين أن حماية الكنائس والكنس والمعابد هدفاً، وأمرًا منشوداً، فلا يجوز التعرض لها بالهدم أو التخريب، ولا يجوز التعرض لمرتاديتها بأي شكل من أشكال الأذى أو المضايقة، بغض النظر عن الموقف من أصحابها، يقول تعالى: ﴿وَلَوْ لَّا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهَدَمْتُ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾⁽³⁾، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾⁽⁴⁾.

ولم يقصر المسلمون الحماية الواجبة على المساجد، وإنما فقهوا من روح دينهم ومبادئه وأحكامه وقيمه لزوم حماية دور العبادة ومرتاديتها بغض النظر عن معتقدات أصحابها، فكان ولاية أمر المسلمين يوصون الجيوش وقادتها بعدم التعرض بالأذى للصوامع ومرتاديتها، عملاً بالهدي النبوي بهذا الصدد.

ملاطفة غير المحاربين من غير المسلمين والقسط إليهم

يراعي المسلم ملاطفة الآخرين من غير المسلمين، الذين لا يناصبون المسلمين العداء، وتلك الملاطفة تتطلق من توجيهات الإسلام المتضمنة في القرآن الكريم والسنة النبوية، فالله يقول: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾⁽⁵⁾

1 - الحجرات: 13.

2 - الغاشية: 21-26.

3 - الحج: 40.

4 - البقرة: 114.

5 - الممتحنة: 8.

حرص المسلم على تحقيق السلم المجتمعي والعالمي

يفترض في المسلم أن يألف ويؤلف، وأن يكون بلسماً يداوي زيغ الذين يnehجون قهر الناس واضطهادهم، واغتصاب حقوقهم منهجاً، حيث يجد المسلم ما يدفعه ليكون سهلاً مع الناس لين الخلق، غير فظ ولا غليظ قلب، ينشد السلام دون هوان، يقوده وحي الله الذي نزل به الروح الأمين على قلب خاتم المرسلين، إلى أن يكون مسلماً يسعى إلى تحقيق السلامة للناس، فيقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾⁽¹⁾ ويقول سبحانه: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾⁽²⁾

الحوار وسيلة مهمة للتواصل مع الآخر

في ظل الاختلاف الواقع لا محالة بين الناس، لا بد للمسلم من وسيلة للتواصل مع الناس، ويجدر التنبيه في هذا المقام إلى أن دعوة المسلم إلى الدين، وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر لا بد أن يؤديهما وفق المنهاج الذي أرسيت أسسه في القرآن والسنة، فانه تعالى يقول: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾⁽³⁾.

وقد ثبتت مشروعية الحوار في كثير من الآيات القرآنية، فانه حاور الملائكة، بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾⁽⁴⁾، فالحوار أسلوب رئيس يستخدمه الناس في علاقاتهم مع بعضهم بعضاً.

وقد حرص الإسلام على فتح كل الآفاق السلمية للحوار مع الآخر، فدعا القرآن الكريم أهل الكتاب للحوار السلمي، فقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾⁽⁵⁾.

والنتائج الإيجابية للحوار ليست مضمونة، ولا ينبغي أن يكون نجاحها مشروطاً مسبقاً، فانه تعالى أمر رسوله، صلى الله عليه وسلم، بالدعوة، ووضح له أن الاستجابة ليست بيده، وينبغي أن لا تعتبر حتمية بعد عرض الدعوة، فقال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ

1 - البقرة: 208.

2 - الأنفال: 61.

3 - النحل: 125.

4 - البقرة: 30.

5 - آل عمران: 64.

وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ...}{⁽¹⁾، ويجدر كذلك أن لا تحبط النتائج السلبية المتوقعة من محاولة الحوار وطرق أبوابه، فالله تعالى يقول: {وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِيَّايَ رَبُّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}{⁽²⁾.

* التمسك بالثوابت الشرعية، التي يطلب من المسلم التزامها في كل الظروف والأحوال، باستثناء حالات الضرورة، حيث يجب التقيد بالحكم الشرعي الخاص بكل حال أو ظرف، سواء تعلق بحياة الفرد أم الجماعة، لقوله تعالى: {لَوْ مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا}{⁽³⁾.

* الصبر على ما يجد المرء من مخالفه، يقول تعالى: {وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِيَّاكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ}{⁽⁴⁾.

* مراعاة احترام الشخص الآخر سواء عند محاورته أو الحديث عنه، فالسخرية والتهكم تنفر، وتجلب سلبيات للساخر ودعوته، والله تعالى نهى عنها وغيرها من أنواع السلوك الذي يجرح مشاعر الآخرين، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ...}{⁽⁵⁾.

* تجنب سب الآخر أو شتم مبادئه، قال تعالى: {وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ...}{⁽⁶⁾.

* التعاطي مع قضايا الاختلاف بموضوعية وإنصاف، فالله تعالى نهى عن مجانية العدل مع الخصم، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَانُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ...}{⁽⁷⁾.

* التحلي بالرفق واللين في محاوره الناس ومعايشتهم، قال تعالى: {...وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...}{⁽⁸⁾.

وخير قدوة في ذلك هو الرسول، صلى الله عليه وسلم، الذي أثنى الله عليه، فقال تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ...}{⁽⁹⁾.

¹ - البقرة: 272.

² - الأعراف: 164.

³ - الأحزاب: 36.

⁴ - يونس: 109.

⁵ - الحجرات: 11.

⁶ - الأنعام: 108.

⁷ - المائدة: 8.

⁸ - النحل: 125.

⁹ - آل عمران: 159.

* الامتناع عن ممارسة الاقتتال الداخلي بين الفئات المجتمعية المختلفة، أفراداً وجماعات، حيث اعتبر الله التنازع في الأمر من مسببات الفشل، فقال تعالى: {... حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ...}.⁽¹⁾

* التمييز بين الناس حسب مواقفهم من المسلمين، فإله تعالى يقول: {لَيْسُوا سَوَاءً مَّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ}.⁽²⁾

فمن الإجحاف معاملة غير المسلمين بنفس المستوى والأسلوب، والله يجعل المودة مطلباً منشوداً بين الأعداء عند توفر مقتضياتها، يقول تعالى: {عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}.⁽³⁾

ومن التعايش الودي بين المسلمين وغيرهم، عيادة مرضى الآخر، والتعامل المعاشي معه، عن أنس، رضي الله عنه، قال: "كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَرِضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَعُودُهُ، فَفَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: أَسَلِمَ، فَنَظَرَ إِلَيَّ أَبِيهِ، وَهُوَ عِنْدَهُ، فَقَالَ لَهُ: أَطْعُ أَبَا الْقَاسِمِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَسَلِمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ يَقُولُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ".⁽⁴⁾

وكان الرسول، صلى الله عليه وسلم، يقبل الهدية من غير المسلم، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه: "أن يهودية أتت النبي، صلى الله عليه وسلم، بشاة مسمومة، فأكل منها، فجيء بها، فقيل: ألا نقتلها؟! قال: لا؛ فما زلت أعرفها في لهوات⁽⁵⁾ رسول الله، صلى الله عليه وسلم".⁽⁶⁾

الأخلاق تتجلى في غاية دعوة الآخرين إلى الإسلام

يحمل المسلم دينه ودعوته للعالمين بهدف تتجلى فيه مصالحهم ونجاتهم، فإله تعالى يقول: {الرَّ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ}⁽⁷⁾

ويقول سبحانه: {يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}⁽⁸⁾

1 - آل عمران: 152.

2 - آل عمران: 113.

3 - الممتحنة: 7.

4 - صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه وهل يعرض على الصبي.

5 - في لهوات: بفتح اللام جمع لهاة وهي سقف الفم أو اللحم المشرفة على الحلق، وقيل هي أقصى الحلق، وقيل ما يبدو من الفم عند التبسّم. (فتح

الباري - لابن حجر العسقلاني)، كأنه بقي للسم علامة وأثر من سواد أو غيره. (صحيح مسلم بشرح النووي)

6 - صحيح البخاري، كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب قبول الهدية من المشركين.

7 - إبراهيم: 1.

8 - المائدة: 16.

والغاية التي حددها الصحابي الجليل ربعي بن عامر لرستم قائد جيش الفرس في معركة القادسية، تشكل نبراساً لأخلاق المسلمين في علاقاتهم الخارجية مع غيرهم من الناس، فقد سأل رستم ربعي: ما جاء بكم؟ فقال ربعي: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام. (1)

ومن مقتضيات التعامل مع حقيقة الاختلاف الواقع بين أصحاب الأديان، أن لا يجبر أحد على تغيير مذهبه ومعتقده، فنزع الاعتقاد قسراً من الناس خطأ فادح، لأنه لا يوصل إلى الهدف الحقيقي والمتمثل في الهداية الحقيقية، عدا عما يؤديه النزاع القهري من ظلم للناس، وذلك يتنافى مع قيم الإسلام ومبادئه، ومعلوم أن الله عز وجل نهى عن الإكراه في الدين، فقال تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ...} (2)

ويخاطب الله أشد الناس مخالفة للمسلمين وهم الكافرون، فيفسح لهم المجال ليبقوا على مذاهبهم، فيقول تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ* لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ* وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ* وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ* وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ* لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} (3)

وجاءت آيات أخرى تؤكد أن اختلاف البشر في معتقداتهم وشرائعهم يقع في إطار مشيئة الله تعالى، فالله تعالى يقول: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ} (4)، ويقول تعالى: {...بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً فَلَمَّ يَيَّاسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً}. (5)

وبما أن التعددية العقائدية أمر واقع لا محالة، فعلى المسلم أن يتعامل مع هذه القضية من هذا المنطلق، فالله تعالى يقول: {وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ..}. (6)

التوصيات

يحسن في ختام هذا البحث المتواضع تقديم بعض التوصيات التي من شأنها التصدي لمحاولة طمس معالم الإسلام وخصائص أخلاقه وثمراتها، إلى جانب نشر الوعي بالإسلام وأخلاقه، وبيان مدى حاجة الإنسانية إليهما في كل العصور والأماكن. والتي يرجى أن يؤدي الأخذ بها إلى المساهمة في إحقاق الحق، وإبطال الباطل، فيما يخص دور الأخلاق الإسلامية

1 - ابن كثير، البداية والنهاية، ج7، غزوة القادسية.

2 - البقرة: 256.

3 - الكافرون: 1-6.

4 - هود: 118.

5 - الرعد: 31.

6 - الكهف: 29.

المرجو أن يكون في جانب ضبط العلاقات الدولية والإنسانية، ومن التوصيات التي خرج بها هذا البحث:

* التصدي لمحاولة طمس معالم الإسلام وخصائص أخلاقه وثمراتها، من خلال القيام بنشاطات مشابهة لهذا المؤتمر في بلدان، ومناسبات أخرى.

* نشر الوعي بالإسلام وأخلاقه، من خلال الكتابة والحديث المباشر للناس، سواء عبر الأثير أم من خلال المحاضرات والندوات والخطب، حتى تصل الصورة الحقيقية للإسلام إلى الناس دون تكلف أو تحريف.

* بيان مدى حاجة الإنسانية إلى مبادئ الإسلام وأخلاقه في كل العصور والأماكن، وبخاصة في مواطن اضطهاد الناس وقهرهم، ومواطن الصراعات القائمة بينهم.

* المساهمة في إحقاق الحق، وإبطال الباطل، فيما يخص دور الأخلاق الإسلامية المرجو أن يكون في مجال ضبط العلاقات الدولية والإنسانية، فصورة الإسلام وقيمه تتعرض لحملة تشويه مسعورة، سواء من الذين يسيئون حمله وتطبيقه، أم من المتربصين به الدوائر، فلا بد من حملة مضادة، تكون سليمة المراجع والأصول والتطبيق والأهداف والوسائل والأساليب، وأي عمل أو نشاط يتم تفعيله أو القيام به على هذا الصعيد، يسهم بحجم معين في بيان الحقيقة، وجلاء الصورة.

خاتمة

فهذه أضواء مختارة من ضوابط العلاقات الدولية والإنسانية في ضوء الأخلاق الإسلامية، بثت إشعاعاتها النيرة من معقل تلك الأخلاق، لتدل بجلاء على مدى شمول تلك الأخلاق لتلك العلاقات، ولتعبّر بوضوح عن حاجة الإنسانية إلى قيم الإسلام الأخلاقية ومبادئه وتشريعاته حتى تستقيم أمورها، وينعم الناس في ظلها بدفء الأمن وطمأنينة العدل، في حياة يعمها السلام والود والوئام، على مختلف أجناسهم ومواطنهم وألوانهم ولغاتهم ومعتقداتهم. حيث يجد فيها كل ذي حق حقه، ويعثر كل صاحب مظلمة على من يعينه على رفع الظلم عنه، أينما وجد، وحيثما كان للمسلمين عزة ومنعة، يتأهلون بها، وبمبادئهم، للقيام بما أنيط بهم من واجب تجاه الناس، الذين يحمل المسلم لهم رسالة الله، بهدف إنقاذهم من وحل الضلال وظلامه، إلى سعادة الهدى ونوره.

وآخر دعوانهم أن الحمد لله رب العالمين، وسلام على المرسلين

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم.
2. الأشهبى، شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح، المستطرف في كل فن مستظرف.
3. الأندلسي، أحمد بن محمد بن عبد ربه. العقد الفريد.
4. أبو الفداء، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي. البداية والنهاية.
5. البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى. سنن البيهقي.
6. الشافعي، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني. فتح الباري شرح صحيح البخاري.
7. الدمشقي، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي. أحكام أهل الذمة.
8. الهروي، القاسم بن سلام الخراساني. كتاب الأموال.
9. الأصبحي، مالك بن أنس. موطأ الإمام مالك.
10. مصطفى، إبراهيم/ الزيات، أحمد/ عبد القادر، حامد/ النجار، محمد. المعجم الوسيط.
11. البخاري، محمد بن إسماعيل. الجامع الصحيح المختصر.
12. النيسابوري، محمد بن عبد الله الحاكم. المستدرک علی الصحیحین.
13. عبد الوهاب، محمد. مختصر السيرة.
14. الدينوري، محمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة. الإمامة والسياسة.
15. الغزالي، محمد بن محمد. إحياء علوم الدين.
16. المصري، محمد بن مكرم بن منظور. لسان العرب.
17. القزويني، محمد بن يزيد. سنن ابن ماجة.
18. النيسابوري، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري. صحيح مسلم.
19. أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم. الخراج.
20. صحيفة القدس، (18-10-2007م) وجهة نظر في فهم الآخر. عوض الله، إبراهيم.
21. حسين، محمد أحمد، نظرات في أسس التعامل مع الآخر.
22. موقع إسلام ويب (www.islamweb.net). مركز الفتوى.
23. تاريخ القدس منذ الفتح العربي، قدس برس، الدكتور أحمد صدقي الدجاني.

الفهرس

2	ملخص البحث
4	مقدمة
5	مفهوم الأخلاق
5	أهمية الأخلاق في تنظيم العلاقات الدولية والإنسانية وضبطها
6	الأخلاق الإسلامية في مجال ضبط العلاقات الدولية والإنسانية
6	• التواضع إلى الناس انطلاقاً من مبدأ المساواة بين الناس في الحقوق والواجبات
7	• يحترم المسلم الناس، ويحفظ كرامتهم
8	• الرحمة بالناس وإنصافهم
9	• الأخلاق في مخاطبة قادة الدول الأخرى
11	• الأخلاق في مضامين المعاهدات والمواثيق الدولية
12	• أخلاق المسلم تقتضيه الوفاء بالعهود والمواثيق الدولية
13	• حماية الوفود وطالبي اللجوء
13	• الأخلاق في الحروب وساحات الصراع العسكري ومع المخالفين في العقيدة
15	• صون الدماء البريئة، وإثم من يرسي منهج قتل الأبرياء
17	• حفظ حقوق الأسرى
17	• حفظ حقوق المدنيين وأمنهم
17	• فهم الآخر ومنع إكراهه على اعتقاد أو تركه
18	• الصبر على ما يجده المرء من معاناة خلال تعامله مع المخالفين
19	• ملاطفة غير المحاربين من غير المسلمين والقسط إليهم
20	• حرص المسلم على تحقيق السلم المجتمعي والعالمي
20	• الحوار وسيلة مهمة للتواصل مع الآخر
22	• الأخلاق تتجلى في غاية دعوة الآخرين إلى الإسلام
23	التوصيات
24	خاتمة
25	المصادر والمراجع
26	الفهرس